تفسير ابن كثير

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم كان يوما يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع في إسلامه فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان ممن أسلم قديما فجعل يسأل رسول ا صلى ا عليه وسلّم عن شيء ويلح عليه وود النبي صلى ا عليه وسلّم أن لوكف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعا ورغبة في هدايته وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل على الاخر فأنزل ا تعالى : { عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى } أي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه { أو يذكر فتنفعه الذكرى } أي يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم { أما من استغنى * فأنت له تصدى } أي أما الغني فأنت تتعرض له لعله يهتدي { وما عليك أن لا يزكى } أي ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة { وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى } أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له : { فأنت عنه تلهى } أي تتشاغل ومن ههنا أمر ا تعالى رسوله صلى ا عليه وسلّم أن لا يخص بالإنذار أحدا بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف والفقير والغني والسادة والعبيد والرجال والنساء والصغار والكبار ثم ا تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة قال الحافظ أيو يعلى في مسنده : حدثنا محمد بن مهدي حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس Bه في قوله تعالى : { عبس وتولى } جاء ابن أم مكتوم إلى النبي صلى ا عليه وسلّم وهو يكلم أبي بن خلف فأعرض عنه فأنزل ا D { عبس وتولى * أن جاءه الأعمى } فكان النبي صلى ا عليه وسلّم بعد ذلك يكرمه .

قال قتادة : أخبرني أنس بن مالك قال : رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء يعني ابن أم مكتوم وقال أبو يعلى وابن جرير : حدثنا سعيد بن يحيى الأموي حدثني أبي قال : هذا ما عرضنا على هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : أنزلت { عبس وتولى } في ابن أم مكتوم الأعمى [أتى إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم فجعل يقول أرشدني قالت وعند رسول ا صلى ا عليه وسلّم رجل من عظماء المشركين قالت : فجعل النبي صلى ا عليه وسلّم يعرض عنه ويقبل على الاخر ويقول : أترى بما أقول بأسا ؟ فيقول : لا ! ففي هذا أنزلت { عبس وتولى }] وقد روى الترمذي هذا الحديث عن سعيد بن يحيى الأموي بإسناده مثله ثم قال : وقد رواه بعضهم عن هشام بن عروة عن أبيه قال : أنزلت عبس وتولى في ابن أم مكتوم ولم يذكر فيه عن عائشة { قلت } كذلك هو في الموطأ .

ثم روى ابن جرير وابن أبي حاتم أيضا من طريق العوفي عن ابن عباس قوله : { عبس وتولى * أن جاءه الأعمى } قال : [بينا رسول ا صلى ا عليه وسلّم يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل

بن هشام والعباس بن عبد المطلب وكان يتصدى لهم كثيرا ويحرص عليهم أن يؤمنوا فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد ا بن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم فجعل عبد ا يستقرىء النبي صلى ا عليه وسلّم آية من القرآن وقال : يا رسول ا علمني مما علمك ا فأعرض عنه رسول ا صلى ا عليه وسلّم وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الاخرين فلما قضى رسول ا صلى ا عليه وسلّم نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك ا بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل ا تعالى : { عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى }] .

فلما نزل فيه ما نزل أكرمه رسول ا صلى ا عليه وسلّم وكلمه وقال له رسول ا A : [ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ ـ وإذا ذهب من عنده قال ـ هل لك حاجة في شيء ؟ وذلك لما أنزل ا تعالى : { أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك أن لا يزكى }] فيه غربة ونكارة وقد تكلم في إسناده وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادي حدثنا عبد ا بن صالح حدثنا الليث حدثني يونس عن ابن شهاب قال : قال سالم بن عبد ا عن عبد ا بن عمر يقول : سمعت رسول ا A يقول : [إن بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم] وهو الأعمى الذي أنزل ا تعالى فيه { عبس وتولى * أن جاءه الأعمى } وكان يؤذن مع بلال قال سالم : وكان رجلا ضرير البصر فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس حين ينظرون إلى بزوغ الفجر أذن وهكذا ذكر عروة بن الزبير ومجاهد وأبو مالك وقتادة والضحاك وابن زيد وغير واحد من السلف والخلف أنها نزلت في ابن أم مكتوم والمشهور أن اسمه عبد ا ويقال عمرو وا أعلم .

وقوله تعالى : { كلا إنها تذكرة } أي هذه السورة أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم وقال قتادة والسدي { كلا إنها تذكرة } يعني القرآن { فمن شاء ذكره } أي فمن شاء ذكر ا تعالى في جميع أموره ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه .

وقوله تعالى : { في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة } أي هذه السورة أو العظة وكلاهما متلازم بل جميع القرآن في صحف مكرمة أي معظمة موقرة { مرفوعة } أي عالية القدر { مطهرة } أي من الدنس والزيادة والنقص وقوله تعالى : { بأيدي سفرة } قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وابن زيد : هي الملائكة وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمد A وقال قتادة : هم القراء وقال ابن جريج عن ابن عباس : السفرة بالنبطية القراء وقال ابن جرير : والصحيح أن السفرة الملائكة والسفرة يعني بين ا تعالى وبين خلقه ومنه يقال السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير كما قال الشاعر : .

(وما أدع السفارة بين قوم ... يوما أمشي بغش إن مشيت) .

وقال البخاري : سفرة : الملائكة سفرت أصلحت بينهم وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي ا تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم وقوله تعالى : { كرام بررة } أي خلقهم كريم حسن شريف وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل حدثنا هشام عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعد بن هشام عن عائشة Bها قالت : قال رسول ا A : [الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران] أخرجه الجماعة من طريق قتادة به